عائشة بنت طلحة

أهم قصيدة رُويت لعمر بن أبي ربيعة هي رائيته التي فضَّله بها القدماء على جميل، ومن الواضح أن أولى معشوقاته بالفضل عليه هي تلك الجميلة التي أوحت إليه بتلك القصيدة، وما كانت تلك الحسناء فيما نظن إلا عائشة بنت طلحة التي أجمع أهل عصرها على تفردها بروعة الجمال، يدلُّ على ذلك ما أشرنا إليه فيما سلف من أنها سهرت ليلة لهمٍّ لم بها، فقالت: إن ابن أبي ربيعة لجاهل بليلتي هذه حيث يقول:

أعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريان ملتف الحدائق أخضر

وال كفاها كل شيء يهمها ... فليست لشيء آخر الليل تسهر

ولو لم يعنها بهذه الإشارة لما رجعتها حين قهرها الحزن في هدأة الليل، فلنقف قليلًا عند ذكري هذه الفاتنة التي أثارت قلبه، وأضرمت إحساسه، ففتحت له باب الخلود[1].

وإنه ليكفي أن نتحدث عن جمالها، وأخلاقها، وعقلها، وجاهها، وأخبارها مع الحارث بن خالد المخزومي، وحوادثها مع شاعرنا المحظوظ.

جمالها:

أمَّا جمالها فقد كان فتنة لكل من سمع بها أو رآها من أهل ذلك الزمان، وأنهم ليذكرون أنها صارمت زوجها وخرجت من دارها غَضْبى، فمرت في المسجد وعليها

(١) يستبعد أستاذنا الدكتور طه حسين أن يكون عمر قال هذه القصيدة في عائشة، ويرى أن استئناسها بشعره لا يزيد عن أنه تمثل. وحوادث القصيدة تبعد أيضًا أن يكون قالها في عائشة، فسيرى القارئ أنها كانت عفيفة مصونة؛ غير أنه لا ينبغي أن ننسى أنه لم يلتزم تصوير الواقع في شعره، فلا يبعد أن تكون هذه القصيدة من وحيها، وإن لم يكن لها من حوادثها نصيب. وسنعود إلى الكلام عمن قيلت فيها هذه القصيدة بعد فصول.

ملحفة تريد عائشة أم المؤمنين، فرآها أبو هريرة فقال: سبحان الله! كأنها من الحور العين! ورُوي أنها نازعت زوجها إليه، فوقع خمارها عن وجهها فقال: سبحان الله! ما أحسن ما غذاك أهلك، لكأنما خرجت من الجنة! وقال لها يومًا: ما رأيت شيئًا أحسن منك إلا معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله. فقالت: والله لأنا أحسن من النار في الليلة القرة في عين المقرور! وقد حدثت إحدى الوصائف أنها زارتها فرأت عجيزتها من خلفها وهي جالسة كأنها غيرها. قالت: فوضعت إصبعي عليها لأعلم ما هي. فلما وجدت مسَّ أصبعي قالت: ما هذا؟ قلت: جعلتِ فداءك، لم أدر ما هو فجئت لأنظر! فضحكت وقالت: ما أكثر من يَعجب مما عجبتِ منه!

قال سالم بن قتيبة: رأيت عائشة بنت طلحة بمنى أو مسجد الخيف، فسألتني من أنت؟ قلت: سالم بن قتيبة. قالت: رحم الله مصعبًا. ثم ذهبت تقوم ومعها امرأتان تُنهضانها، فأعجزتها أليتاها من عظمهما، فقالت: إن بكما لَمُعنَّاة! فذكرت قول الحارث:

وتنوء تُثقلها عجيزتها ... نهض الضعيف ينوء بالوسق[1]

وروي صاحب الأغاني أنه كان بالمدينة امرأة حسناء، تسمَّى عزة الميلاء، يألفها الأشراف وغيرهم من أهل المروآت، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء، فأتاها مصعب بن الزبير وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر وسعيد بن العاص، فقالوا: إنا خطبنا فانظري لنا. فقالت لمصعب: يابن أبي عبد الله، ومن خطبت؟ فقال: عائشة بنت طلحة. فقالت: وأين أنت يابن أبي أحيحة؟ قال: عائشة بنت عثمان. قالت: فأنت يابن الصديق؟ قال: أم القاسم بنت زكريا بن طلحة. قالت: يا جارية! هاتي منقلي -تعني خُفيها- فلبستهما وخرجت ومعها خادم لها، فإذا

(١) الوسق: الحمل.

هي بجماعة يزحم بعضها بعضًا، فقالت: يا جارية، انظري ما هذا، فنظرت ثم رجعت. فقالت: امرأة أُخذت مع رجل، فقالت: داء قديم! امضي ويلك! فبدأت بعائشة بنت طلحة فقالت: فديتك، كنَّا في مأدبة أو مأتم لقريش فتذاكروا جمال النساء وخلقهن، فذكروك فلم أدر كيف أصفك فديتك، فألقي ثيابك، ففعلت، فأقبلتْ، وأدبرتْ، فارتجَّ كل شيء منها، فقالت لها عزة: خذي ثوبك فديتك! فقالت عائشة: قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتي. قالت عزة: وما هي بنفسي أنت؟ قالت: تغنينني صوتًا. فاندفعت تغني لحنها في شعر جميل:

خليليَّ عُوجا بالمحلة من جُملِ ... وأترابها بين الأُصيفر والخبلِ

نقف بمغانٍ قد محا رسمها البِلى ... تُعاقبها الأيام بالريح والوبلِ[1]

فلو درج النمل الصِّغار بجلدها ... لأندب أعلى جلدها مَدرج النملِ[2]

وأحسن خلق الله جيدًا ومقلةً ... تُشبَّه في النسوان بالشادِن الطفلِ

فقامت عائشةُ فقبَّلت ما بين عينيها، ودعت لها بعشرة أثواب وبطرائف من أنواع الفضة وغير ذلك، فدفعته إلى مولاتها فحملته، وأتت النسوة على مثل ذلك تقول ذلك لهنَّ، حتى أتت القوم في السقيفة فقالوا: ما صنعت؟ فقالت: يابن أبي عبد الله، أما عائشة فلا والله إن رأيت مثلها مقبلةً ومُدبرة، محطوطة المتنين[3]، عظيمة العجيزة، ممتلئة الترائب، نقية الثغر وصفحة الوجه، فرعاء الشعر، لفاء الفخذين ممتلئة الصدر، خميصة البطن، ذات عُكَن[4]، ضخمة السُّرة، مَسْرُولَة الساق[5]، يرتج

(١) تعاقبها الأيام: تختلف عليها.

(٢) أندبه: أثر فيه.

(٣) محطوطة المتنين: تريد أنها ناعمة ملساء.

(٤) جمع عكنة -بالضم- وهي ما انطوى وتثنى في لحم البطن.

(٥) مسرولة: بيضاء، ويقولون: فرس مسرول، إذا جاوز بياض تحجيله العضدين والفخذين.

يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها، وفيها عيبان: أما أحدهما فيواريه الخمار، وأما الآخر فيواريه الخف: عظم القدم والأذن -وكانت عائشة كذلك- ثم قالت عزة: وأما أنت يابن أبي أحيحة، فإني والله ما رأيت مثل خلق عائشة بنت عثمان لامرأة قط، ليس فيها عيب، والله لكأنما أفرغت إفراغًا[1]، ولكن في الوجه ردة، وإن استشرتني أشرت عليك بوجه تستأنس به، وأما أنت يابن الصديق، فوالله ما رأيت مثل أم القاسم، كأنها خوط بانة، تثنى وكأنها جَدْل عنان، أو كأنها خشف يتثنى على رمل. لو شئت أن تعقد أطرافها لفعلت؛ ولكنها شختة الصدر[2]، وأنت عريض الصدر، فإذا كان ذلك كان قبيحًا، لا والله حتى يملأ كل شيء مثله!

وقد آثرنا إثبات هذا الحديث لنُرِي القارئ صورةً من تلك الحياة اللينة التي كان يحياها شباب الحجاز، ولنريه كيف كانت عائشة بنت طلحة في أعين الخبيرات من النساء، فإن المرأة أعرف بالمرأة، وأبصر من الرجل بسرائر الحسن المكنون.

وعلى ذكر مصعب وعزة نقول: إن عائشة دعت يومًا نسوة من قريش، فلما جئنها أجلستهن في مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب المجمَّر، وخلعت على كل منهن خلعة تامة من الوشي والخز ونحوهما، ودعت عزة الميلاء ففعلت بها مثل ذلك وأضعفت، ثم قالت لعزة: هاتي يا عزة فغنينا. فغنتهن في شعر امرئ القيس:

وثغرٌ أغرُّ شنيب النبات ... لذيذ المقبل والمبتسم[3]

وما ذقته غير ظنٍّ به ... وبالظن يقضي عليك الحَكَم

---

(١) أفرغت أفراغًا: صبت صبًّا.

(٢) الشخت: الدقيق.

(٣) شنيب: فيه شنب -بالتحريك- وهو الرقة والبرد والصفاء.

وكان مصعب قريبًا منهن ومعه إخوان له، فقام فانتقل حتى دنا منهن والستور مُسبَلة، فصاح: يا هذه، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت، فبارك الله فيك يا عزة! ثم أرسل إلى عائشة: أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت، ثم تعود إليك. ففعلت وخرجت عزة إليه فغنته هذا الصوت مرارًا، وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحًا، ثم قال لها: يا عزة! إنك لتحسنين القول والوصف![1]

وكانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد، فعاتبها مصعب في ذلك، فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم، فما كنت لأستره، ووالله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد.

وكانت بجمالها باغيةً ظالمة، تكلف بالكيد لأترابها من شهيرات النساء؛ فقد ذكروا أن رملة بنت عبد الله قالت لمولاة لعائشة بنت طلحة: أريني عائشة متجردة ولك ألفا درهم. فأخبرت عائشة بذلك. قالت: فإني أتجرد فأعلميها ولا تعرِّفيها أني أعلم. فقامت عائشة كأنها تغتسل، وأعلمتها، فأشرفت عليها مُقْبلةً ومُدْبرة، فأعطت رملة لمولاتها ألفي درهم، وقالت: لوددت أني أعطيتك أربعة آلاف درهم ولم أرها! قال صاحب الأغاني: وكانت رملة قد أسنَّت، وكانت حسنة الجسم، قبيحة الوجه، عظيمة الأنف، وفيها وفي عائشة يقول الشاعر:

---

(١) كانت عزة من أجمل النساء وجهًا وأحسنهن جسمًا، وسميت الميلاء لتمايل في مشيتها، وقيل: بل كانت تلبس الملاءة وتشبه بالرجال فسميت بذلك، كما كانت تفعل في عصرنا أم كلثوم حرسها الله؛ وقيل: بل كانت مغرمة بالشراب، وكانت تقول: خذ ملئًا واردد فارغًا. قال أبو الفرج: والصحيح أنها سميت الميلاء لميلها في مشيتها. وقد غنت يومًا عمر بن أبي ربيعة لحنًا لها في شيء من شعره، فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صعق معها، فلما أفاق قال له القوم: لغيرك الجهل، يا أبا الخطاب! فقال: إني سمعت والله ما لم أملك معه نفسي ولا عقلي.

أنعم بعائش عيشًا غير ذي رَنَق وانبذ برملةَ نبذَ الجوربِ الخلق

وكانت عائشة بنت طلحة تنافس بالحُسن سُكينة بنت الحسين. قالت لها يومًا سكينة: أنا أجمل منك. قالت عائشة: بل أنا! فاختصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة. فقال: لأقضينَّ بينكما، أما أنت يا سكينة فأملح منها، وأما أنت يا عائشة فأجمل منها. فقالت سكينة: قضيت لي والله! ومن هنا نعرف أنهم كانوا يؤثرون الملاحة على الجمال.

أخلاقها:

وأمَّا أخلاقها فكان أظهرها العفة، والشراسة، واللؤم، وحدَّة الشهوة.

كانت عفيفة فلم يستطع أحد من طُغاة الفتيان والأمراء أن يطمع منها في كثير من الإثم أو قليل. ولم يجد أترابها مغمزًا ينلنها منه حين يجدُّ الشغب ويطول اللجاج، وكانت في عفتها وصيانتها خَنِثَة غَنِجَة تُوَاتي الزوج بأطيب ما تستطيع المرأة العَرُوب من غرائب الدلال.

تموت وتحيا بالضجيع وتلتوي بمضطرب المتنين منبتر الخصر

وهي التي تقول وقد لامتها إحدى صواحباتها حين سمعتها تتقتَّل تحت عمر بن عبيد الله: إنا نتشهَّى لهذه الفحول بكل ما حرَّكها وكل ما قدرنا عليه!

وكانت شِرسة لا يقدر عليها الزوج إلا بالتَّلاحي والضرب، ولها في هذا الباب أخبار تُروى للتَّفكه والمزاح؛ فمن ذلك أنها قالت لمصعب: أنت عليَّ كظهر أمي، وقعدت في غرفة وهيأت فيها ما يصلحها، فجهد مصعب أن تكلمه فأبتْ، فبعث إليها ابن قيس الرقيات فسألها كلامه، فقالت: كيف بيميني؟ فقال: هاهنا الشعبي فقيه أهل العراق، فاستفتيه، فدخل عليها فأخبرته، فقال: ليس هذا بشيء! فقالت: أتُحِلُّني وتخرج خائبًا! وأمرت له بأربعة آلاف درهم.

وغضبت يومًا على مصعب، وكانت من أحب الناس إليه، فشكا ذلك إلى أشعب، فقال: مالي إن رَضيتْ؟ قال: حكمك! قال: عشرة آلاف درهم. قال: هي لك. فانطلق حتى أتى عائشة فقال: جُعِلت فداءكِ! قد علمت حبي لك، وميلي قديمًا وحديثًا إليك، من غير مَنالةٍ ولا فائدة، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقي، وترتهنين بها شكري.

قالت: وما عَناكَ؟ قال: قد جعل لي الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيت عنه. قالت: ويحك! لا يمكنني ذلك.

قال: بأبي أنت، فارضي عنه حتى يعطيني، ثم عودي إلى ما عوَّدك الله من سوء الخلق! فضحكت منه ورضيت عن مصعب.

وروى صاحب الأغاني أن مُصعبًا شكاها إلى ابن أبي فروة كاتبه، فقال له: أنا أكفيك هذا إن أذنت لي. قال: نعم أفعل ما شئت، فإنها أفضل شيء نلته من الدنيا. فأتاها ليلًا ومعه أسودان، فاستأذن عليها، فقالت له: أفي مثل هذه الساعة؟ قال: نعم. فأدخلته، فقال للأسودين: احفرا هاهنا بئرًا. فقالت له جاريتها: وما تصنع بالبئر؟ قال: شؤم مولاتك! أمرني هذا الفاجر أن أدفنها حية وهو أسْفَكُ خلق الله لدم حرام. فقالت عائشة: فأنظرني أذهب إليه. قال: هيهات لا سبيل إلى ذلك! وقال للأسودين: احفرا. فلما رأت الجد منه بكت. ثم قالت: يابن أبي فروة، إنك لقاتلي ما منه بد؟ قال: نعم، وإني لا علم أن الله سيجزيه بعدك، ولكنه قد غضب، وهو كافر الغضب. قالت: وفي أي شيء غضبه؟ قال: في امتناعك عنه، وقد ظن أنك تبغضينه وتتطلعين إلى غيره، فقد جُنَّ. فقالت: أنشدك الله إلا عاودته! قال: إني أخاف أن يقتلني. فبكت وبكى جواريها. فقال: قد رققت لك. وحلف أنه يغرِّر بنفسه، ثم قال لها: فما أقول؟ قالت: تضمن عني أن لا أعود أبدًا! قال: فما لي عندك؟ قالت: قيام بحقك ما عشت. قال: فأعطيني المواثيق. فأعطته، فقال للأسودين: مكانكما. وأتى

مصعبًا فأخبره، فقال له: استوثق منها بالأيمان. ففعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب بفضل ذلك الدرس البديع!

وكان لها مع هذه الشراسة لحظات تصفو فيها وتطيب؛ فقد صارمت مصعبًا مرة وطالت مصارمتها له حتى شق ذلك عليها وعليه، وكانت لمصعب حرب، فخرج إليها ثم عاد وقد ظفر؛ فشكت عائشة مصارمته إلى مولاة لها، فقالت: الآن يصلح أن تخرجي إليه. فخرجت تمسح التراب عن وجهه. فقال لها مصعب: إني أشفق عليك من رائحة الحديد. فقالت: لَهو والله عندي أطيب من ريح المسك الأذفر!

ومن أظرف اللحظات التي طابت فيها نفس تلك الحسناء الظلوم، ما حدَّث به ابن سلام إذ قال: حجت عائشة بنت طلحة فجاءتها الثريا وأخواتها ونساء أهل مكة القرشيات وغيرهن، وكان الغريض فيمن جاء، فدخل النسوة عليها، فأمرت لهن بكسوة وألطاف كانت قد أعدتها لمن يجيئها، فجعلت تخرج كل واحدة ومعها جاريتها ومعها ما أمرت لها به عائشة، والغريض بالباب حتى خرج مولياته مع جواريهن الخلع والألطاف، فقال الغريض: فأين نصيبي من عائشة؟ فقلن له: أغفلناك وذهبت عن قلوبنا فقال: ما أنا ببارح من بابها، أو آخذ بحظِّي منها، فإنها كريمة بنت كرام. واندفع يغني بشعر جميل:

تذكرت ليلى فالفؤاد عميدُ وشطت نواها فالمزار بعيدُ

فقالت: ويلكم! هذا مولى العَبَلات بالباب يذكر بنفسه[1]، هاتوه، فدخل. فلما رأته ضحكت وقالت: لم أعلم بمكانك، ثم دعت له بأشياء أمرت له بها، ثم قالت

(١) العبلات: نسبة إلى أمهم عبلة بنت عبيد. (يراجع نسبهم في الجزء العاشر من الأغاني ص١٠٣، ١٠٤).

له: إن أنت غنيتني صوتًا في نفسي فلك كذا وكذا -شيء سمته له ذهب عن ابن سلام- قال: فغناها في شعر كثير:

وما زلت من ليلى لَدُن طرَّ شاربي ... إلى اليوم أُخفي حبها وأُداجنُ[1]

وأحمل في ليلى لقوم ضغينةً ... وتُحملُ في ليلَى عليَّ الضغائن

فقالت له: ما عدوت ما في نفسي، ووصلته فأجزلت.

ولهذين البيتين حديث ذكره الشعبي إذ قال: دخلت المسجد فإذا أنا بمعصب بن الزبير على سرير جالس والناس عنده، فسلمت ثم ذهبت لأنصرف، فقال لي: ادن. فدنوت حتى وضعت يدي على مرافقه، ثم قال: إذا قمتُ فأتبعني، فجلس قليلًا ثم نهض، فتوجه نحو دار موسى بن طلحة فتبعته، فلما طعن في الدار التفت إليَّ فقال: ادخل. فدخلت معه ومضى نحو حجرته وتبعته، فالتفت إليَّ فقال: ادخل. فدخلت معه فإذا حَجلة، وإنها لأول حجلة رأيتها لأمير[2]، فقام ودخل الحجلة، فسمعت حركة، فكرهت الجلوس، ولم يأمرني بالانصراف، فإذا جارية قد خرجت فقالت: يا شعبي، إن الأمير يأمرك أن تجلس، فجلست على وسادة، ورُفع سجف الحجلة، فإذا أنا بمصعب بن الزبير، ورفع السجف الآخر فإذا أنا بعائشة بنت طلحة. قال: فلم أر زوجًا قط كان أجمل منهما: مصعب وعائشة. فقال مصعب: يا شعبي، هل تعرف هذه؟ فقلت: نعم أصلح الله الأمير. قال: ومن هي؟ قلت: سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة. قال: لا. ولكن هذه ليلى الذي يقول فيها الشاعر:

وما زلت من ليلى لدن طر شاربي

---

(١) أداجن: أداهن.

(٢) الحجلة: موضع يزين بالثياب والستور للعروس.

وذكر البيتين، ثم قال: إذا شئت فقم، فلما كان العَشِيُّ رحت وإذا هو جالس على سريره في المسجد، فسلمت فلما رآني قال لي: ادن. فدنوت حتى وضعت يدي على مرافقه، فأصغى إليَّ فقال: هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط؟ قلت: لا والله! قال: أفتدري لِمَ أدخلناك؟ قلت: لا! قال: لتحدث بما رأيت! ثم التفت إلى عبد الله بن أبي فروة، فقال: أعطه عشرة آلاف درهم، وثلاثين ثوبًا. قال: فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به بعشرة آلاف درهم، وبمثل كارة القصاب ثيابًا، وبنظرة من عائشة بنت طلحة!

وهذه النظرة من عائشة بنت طلحة لها موقعها الخاص، فسنرى كيف يقول الغريض مثل هذا أيضًا حين يحمل إليها كتاب الحارث بن خالد المخزومي، وما كان أحرصهم على انتهاب ذلك الوجه المشرق الفصيح!

وكانت لئيمة تصِرُّ على العنف، وتبيت العدوان، يؤيد هذا ما كان بينها وبين زوجها الأول، إذ مات وهي عنده فلم تفتح فاهًا عليه بالرغم من أنه كان ابن خالها، وأنها تزوجته برأي خالتها عائشة أم المؤمنين، فقد كانت أم عائشة بنت طلحة أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وزوجها هذا هو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر. وكان صاحب الفضل عليها إذ لم تلد من أحد من أزواجها سواه: ولدت له عمران وبه كانت تكنى[1]، وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة. وكان ابنها طلحة من أجواد قريش، وله يقول الحزين الدُّؤلي:

---

(١) وبهذه الكنية يخاطبها الحارث بن خالد المخزومي إذ يقول:

يا أم عمران ما زالت وما برحت ... بنا الصبابة حتى مسنا الشفق

القلب تاق إليكم كي يلاقيكم ... كما يتوق إلى منجاته الغرق

توفيك شيئًا قليلًا وهي خائفة ... كما يمس بظهر الحية الفرق

فــإن تــك يــا طلــح أعطيتنــي عُــذَافرةً تــستخف العفــارا[1]
فــما كــان نفعــك لي مــرةً ولا مــرتين ولكــن مــرارا
أبــوك الــذي صــدق المــصطفى وســار مــع المــصطفى حيــث ســارا
وأمــك بيــضاءُ تيميــةٌ إذا نــسب النــاس كــانوا نُــضارا[2]

وكان ذلك الزوج المنجب يضارُّها وتضارُّه، لولا أنه كان أطيب منها قلبًا وأكرم نحيزة[3]، قيل له: طلقها. فقال:

يقولــون طلقهــا لأصــبح ثاويًــا مقــيمًا عــليَّ الهــم أحــلام نــائم
وإن فراقــي أهــل بيــت أحــبهم لهــم زُلفــةٌ عنــدي لإحــدى العظــائم

ومن حديث لؤمها أن مصعبًا دخل عليها مرة وهي نائمة متصبحة، ومعه ثمان لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها، فقالت له: نومتي كانت أحب إليَّ من هذا اللؤلؤ.

وتزوجت بعد مصعب عمر بن عبيد الله، وكان من أشد الناس غيرة، فكانت تسرف في الحديث عن مصعب وعن جماله لتغيظه بذلك. دخل عليها يومًا وقد ناله حر شديد وغبار، فقال لها: انفضي التراب عني. فأخذت منديلًا تنفض به عنه التراب، ثم قالت له: ما رأيت الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب! فكاد عمر يموت غيظًا.

---

(١) العذافرة: العظيمة الشديدة من الإبل. والمذكر عذافر، وهو أيضًا الأسد.

(٢) تيمية: منسوبة إلى تيم، والمراد هنا تيم بن مرة رهط أبي بكر الصديق -والنضار -بالضم-: الجوهر الخالص من التبر.

(٣) النحيزة: الطبيعة.

وكانت تكون لمن يجيء يحدثها في رقيق الثياب، فإذا قالوا: قد جاء الأمير، ضمَّت عليها مطرفها وقطبت؛ عِنادًا ولؤمًا، وكذلك نساء بني تميم فيما قيل: هُنَّ أشرس خلق الله وأحظى عند أزواجهن، وكانت عند الحسين بن علي أم إسحاق بنت طلحة، فكان يقول: والله لربما حملت ووضعت وهي مصارمة لي لا تكلمني.

وكانت حادة الشهوة يتقدم إليها خاطبوها تصريحًا وتلميحًا بما عندهم في ذلك من غناءٍ، ولها في هذا الباب أخبار لا نرى من الخير أن نُبدئ فيها نُعيد؛ إذ كانت لا تخرج عما هو معروف من شَره الطبائع النسائية، وحرصها على ما في أصلاب الرجال.

وهنا لا نرى بدًّا من الإشارة إلى ما يبده المولع بتاريخ ذلك العصر من فحولة الرجال، وأنوثة النساء، وذلك عندي هو سِرُّ تلك القوة التي استطاع بها العرب أن يسودوا العالم، وأن يخضعوه لسلطانهم في زمن قليل، وفحولة الرجال ظاهرة غالبة في عهد بني أمية، والصدر الأول من عهد بني العباس، فلا تكاد ترى رجلًا ظاهرًا إلا مصحوبًا بسيرة مِلؤها الفتك وقوامها الإسراف.

ويكاد يكون عصر بني أمية هو العصر الذي قَوِي فيه سلطان المرأة، وذلَّ الرجل على بطشه وبأسه لما في ضعفها من القوة والجبروت، ويندر أن تجد شاعرًا يحس خطر المرأة ويلمسه كما فعل ابن قيس الرقيات؛ إذ يقول في خطاب عائشة بنت طلحة:

عجبًا للمَلِكِ لا يكن لهُ ... خَرْجَ العراق ومِنبر المُلْك

obeikandl.com

عقلها:

كانت عائشة بنت طلحة حاضرة البديهة، رائعة النكتة، في مكر وخبث. أصاب منها عمر بن عبيد الله يومًا طيب نفس فقال: ما مرَّ بي مثل يوم أبي فُدَيْك[1]: فقالت له: أُعدد أيامك واذكر أفضلها. فعدَّ يوم سجستان ويوم قطري بفارس ونحو ذلك. فقالت عائشة قد تركت يومًا لم تكن في أيامك أشجع منك فيه! قال: وأي يوم؟ قالت: يوم أرخت عليها وعليك رملة السِّتر![2] ترميها بقبح الوجه. وروي أنها حجت فوفدت على هشام فقال لها: ما أوفدكِ؟ قالت: حبست السماء المطر، ومنع السلطان الحق، قال: فإني أصل رحمك وأعرف حقك، ثم يعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي، فأسمروا عندي الليلة. فحضروا، فما تذاكروا شيئًا من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا غار إلا سمَّته، فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة. فأمر لها بمائة ألف درهم، وردها إلى المدينة.

جاهها:

وكانت عائشة بنت طلحة في بسطة من المال يحسب حسابها الأمراء، ونساء الطبقة العالية من قريش. حجت مرة مع سكينة بنت الحسين، وكانت عائشة أحسن آلة وثِقلًا، فقال حاديها:

عـــائش يـــا ذات البغـــال الـــستين ... لا زلـــت مـــا عـــشت كـــذا تحجـــين

فشقَّ ذلك على سكينة ونزل حاديها فقال:

---

(١) هو عبد الله بن ثور، أحد رءوس الخوارج.

(٢) كذلك روى الأغاني في الجزء العاشر في أخبار عائشة، وعبارته في الجزء الأول: (يوم اجتليت رملة، وأقدمت على وجهها وأنفها).

عـــائش هـــذه ضرةٌ تـــشكوكِ لـــولا أبوهـــا اهتـــدى أبـــوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكف، فكف.

واستأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج، فأذن لها وقال: ارفعي حوائجك واستظهري، فإن عائشة بنت طلحة تحج، ففعلت وجاءت بهيئة جهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضعطها وفرَّق جماعتها، فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة! فسألت عنها فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك، فقالوا: عائشة! عائشة! فضغطهم فسألت عنه فقالوا: هذه ما شطتها! ثم جاءت مواكب على هذا السنن، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلثمائة راحلة عليها القباب والهوادج، فقالت عاتكة: ما عند الله خيرٌ وأبقى!

ومن دلائل جاهها وعقلها ما ذكروا أنها لما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة، وبالمدينة سنة، وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف، وقصر كان لها هناك، فتتنزه فيه وتجلس بالعشيات، فيتناضل بين يديها الرماة، فمر بها النميري الشاعر، فسألت عنه فنسب لها. فقالت: ائتوني به. فأتوها به، فقالت له: أنشدني مما قلت في زينب. فامتنع عليها وقال: تلك ابنة عمي، وقد صارت عظامًا بالية. قالت: أقسمت عليك بالله إلا فعلت. فأنشدها قوله:

تـــضوَّع طيبًـــا بطـــن نَعـــمان إذْ مـــشت بـــه زينـــب في نـــسوة عطـــراتِ[1]

فأصـــبح مـــا بـــين الهـــماء فـــصاعدًا إلى الجـــزع جـــزع المـــاء ذي العـــشراتِ[2]

لـــه أرجٌ مـــن مُجمـــر الهنـــد ســـاطعٌ تَطَلَّـــع ريـــاه مـــن الكفـــراتِ[1]

---

(١) هي زينب بنت يوسف، أخت الحجاج.

(٢) الهماء: اسم موضع -والعشرات جمع عشر كصرد، وهو شجر فيه مرارة تحشي به المخاد كما في القاموس.

أعان الذي فوق السماوات عرشه ... موانس بالبطحاء مؤتجرات(٢)

مررن بفخٍّ ثم رُحن عشيةً ... يلبِّين للرحمن معتجرات(٣)

يُخبِّئن أطراف البنان من التقي ... ويقتلن بالألحاظ معتذرات

تقسمن لُبِّي يوم نعمان إنني ... رأيت فؤادي عادم النظرات

جلون وجوهًا لم تلُحها سمائمٌ ... حرورٌ ولم يُسعفن بالسبرَات(٤)

فقلت يعافيرُ الظباء تناولت ... ينَاع غصون الورد مهتصِرات(٥)

ولما رأت ركب النميري أعرضت ... وكن من أن يلقينه حذرات(٦)

دعت نسوة شُمَّ العرانين بُزَّلًا ... نواعم لا شعثًا ولا غبرات(٧)

فأدنين حتى جاوز الركب دونها ... حجابًا من القَسِّي والحبرات(٨)

فكدت اشتياقًا نحوها وصبابة ... تقطع نفسي إثرها حسرات

---

(١) المجمر هو الطيب يوضع على الجمر -والريا: الرائحة -والكفرات: الثياب.

(٢) مؤتجرات: طالبات للأجر أو متصدقات.

(٣) معتجرات: مختمرات بالمعاجر جمع معجر كمنبر؛ وهو ثوب تعتجر به المرأة؛ أي تلتف به -فخ: واد بمكة، قال بلال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بفخ وعندي إذ خر وجليل

(٤) السمائم جمع سموم، وهي الريح الحارة تكون غالبًا بالنهار -والسبرات جمع - سبرة بالفتح، وهي الغداة الباردة.

(٥) اليعافير جمع يعفور، وهو الظبي يشبه لونه التراب.

(٦) لما أحضر الحجاج صاحب هذه القصيدة لعقابه على التشبيب بأخته قال له: كم كنتم إذ تقول:

ولما رأت ركب النميري أعرضت

قال: والله ما كنت إلا أنا وصاحب لي على حمار هزيل! فضحك الحجاج وعفا عنه.

(٧) شم العرانين: مرتفعات الأنوف. وبزل جمع بازل؛ وهو البعير يبلغ تسع سنين فتكمل قوته، والمراد وصف هؤلاء النسوة بأنهن بلغن السن الذي ينقلن فيها القلب من حال إلى حال.

(٨) القسي: نوع من اللباس ينسب إلى قرية مصرية بين العريش والفرماء تسمى القس.

obeikandl.com

فراجعت نفسي والحفيظة بعد ما ... بللت رداء العصب بالعبرات[1]

فقالت: والله ما قلت إلا جميلًا، ولا ذكرت إلا كرمًا وطيبًا، ولا وصفت إلا دينًا وتقي، أعطوه ألف درهم. فلما كانت الجمعة الأخرى تعرض لها، فقالت: عليَّ به. فأُحضر فقالت له: أنشدني من شعرك في زينب. فقال لها: أو أنشدك من شعر الحارث بن خالد فيك. فوثب مواليها إليه، فقالت: دعوه فإنه أراد أن يستقيد لبنت عمه[2]: هات مما قال الحارث فيَّ. فأنشدها قوله:

ظعَن الأمير بأحسن الخَلقِ ... وغدوا بلبسك مطلع الشرق

وتنوء تُثقلها عجيزتها ... نهضَ الضعيف يَنُوءُ بالوسق[3]

ما صبَّحت زوجًا بطلعتها ... إلا غدا بكواكب الطلق

قرشيَّةٌ عبق العبير بها ... عبَق الدِّهان بجانب الحُقِّ

بيضاءُ من تيم كَلِفتُ بها ... هذا الجنون وليس بالعشق

فقالت: والله ما ذكر إلا جميلًا، ذكر أني إذا صبحت زوجًا بوجهي غدًا بكواكب الطلق، وأني غدوت مع أمير تزوجني إلى الشرق، أعطوه ألف درهم، واكسوه حلتين، ولا تعد لأتياننا بعد هذا يا نميري![4]

أخبارها مع الحارث بن خالد المخزومي:

كان الحارث المخزومي -كما قال أبو الفرج الأصبهاني في الجزء الثالث من أغانيه- أحد شعراء قريش المعدودين الغَزِلين. وكان يذهب مذهب عمر بن أبي

(١) العصب: ضرب من البرود.

(٢) يستقيد: ينتقم.

(٣) تنوء: تنهض بنهد ومشقة -والوسق: الحمل.

(٤) راجع أخبار النميري في الجزء السادس من الأغاني، وص١٥٨ ج١ من زهر الآداب.

ربيعة «رضي الله عنه!» لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء. وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها[1]، ولّاه عبد الملك بن مروان مكة، وكان ذا قدر وخطر ومنظر في قريش. وسبب توليه مكة أن قومه بني مخزوم كانوا كلهم زبيرية إلا هو، فإنه كان مروانيًّا، فلما ولي عبد الملك الخلافة وفد عليه في دَين كان عليه سنة ٧٥، وقيل: بل حج عبد الملك في تلك السنة، فلما انصرف رحل معه إلى دمشق، فظهرت له منه جفوة، وأقام ببابه شهرًا لا يصل إليه، فانصرف عنه وقال فيه:

صحِبتُك إذ عيني عليها غشاوةٌ ... فلما انجلت قطَّعت نفسي ألومُها
وما بي وإن أقصيتني من ضراعةٍ ... ولا افتقرت نفسي إلى من يضيمها
عطفت عليك النفس حتى كأنما ... بكفيك بؤسي أو عليك نعيمها

وبلغ عبد الملك خبره وأنشد الشعر، فأرسل إليه من رَدَّ طريقه، فلما دخل عليه قال له: حارِ! أخبرني عنك، هل رأيت عليك في المقام ببابي غضاضة، أو في قصدي دناءة؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين! قال: فما حملك على ما قلت وفعلت؟ قال: جفوةٌ ظهرت لي، كنت حقيقًا بغير هذا! قال: فاختر، فإن شئت أعطيتك ألف درهم، أو قضيت دينك، أو وليتك مكة سنة. فولاه إياها، فحج بالناس وحجت عائشة بنت طلحة عامئذ، وكان يهواها فأرسلت إليه: أخر الصلاة حتى أفرغ من طوافي! فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها، ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس، وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه. فعزله، وكتب إليه يؤنبه فيما فعل. فقال: ما أهون والله غضبه إذا رضيت! والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل!

---

(١) في زهر الآداب ج١ ص٢١٩: أن الحارث بن خالد لم يكن يعتقد شيئًا من ذلك؛ وإنما كان يقول النسيب تظرفًا وتخلعًا.

فلما قضت حجها أرسل إليها، يا ابنة عمي! ألمِّي بنا وعدينا مجلسًا نتحدث فيه. فقالت في غد أفعل ذلك. ثم رحلت من ليلتها ولم تلم به، فقال:

ما ضرَّكم لو قلتمُ سددًا ... إن المطايا عاجلٌ غدُها
ولها علينا نعمةٌ سلفتْ ... لسنا على الأيام نجحدها
لو تممت أسباب نعمتها ... تمت بذلك عندنا يدها
إني وإياها كمفتتن ... بالنار تحرقه ويعبدها[1]

وقد حمل الغريض إليها هذه الأبيات في كتاب، فلما قرأته قالت: ما يدع الحارث باطله! ثم قالت للغريض: هل أحدثت شيئًا؟ قال: نعم، فاسمعي. ثم اندفع يغني الأبيات، فقالت عائشة: والله ما قلنا إلا سددًا، ولا أردنا إلا أن نشتري لسانه. وأتى على الشعر كله، فاستحسنته عائشة، وأمرت له بخمسة آلاف درهم، وأثواب. وقالت: زدني! فغناها في قول الحارث بن خالد أيضًا:

زعموا بأن البين بعد غدٍ ... فالقلب مما أحدثوا يَجِفُ
والعين منذ أجد بينهمُ ... مثل الجُمان دموعها تكف
ومقالها ودموعها سُجُمٌ ... أقلل حنينك حين تنصرف
تشكو ونشكو ما أشت بنا ... كلٌّ بوشك البين معترف[2]

---

(١) لم يوجد هذا البيت في أخبار الحارث بن خالد في الأغاني، وقد نقلناه عن زهر الآداب.

(٢) كذلك نسبت هذه الأبيات إلى الحارث بن خالد، في الجزء الثالث من الأغاني ص١٠٤؛ ولكنها نسبت إلى عمر بن أبي ربيعة بشيء من التغيير في الجزء الأول ص٢٤٣، وهي كذلك في ديوانه، ولكنها أطول مما روى الأغاني. ولنذكر بهذه المناسبة أن كثيرًا من شعر الحجازيين أضيف إلى ابن أبي ربيعة لغلبته عليهم. بل نقل صاحب الأغاني في الجزء السابع في أخبار جميلة أن كثيرًا من شعر العرجي نسب إلى شعر عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد، وكان يتأثرهما في مذاهب النسيب.

فقالت له عائشة: يا غريض! بحقي عليك: أهو أمرك أن تغنيني في هذا الشعر؟

فقال: لا، وحياتك يا سيدتي! فأمرت له بخمسة آلاف درهم.

ثم قالت له: غنني في شعر غيره. فغناها بقول عمر بن أبي ربيعة:

أجمعت خُلَّتي مع الفجر بينا ... جلَّ الله ذلك الوجه زينا

أجمعت بينها ولم نك منها ... لذة العيش والشباب قضينا

فتولَّت حُمُولها واستقلت ... لم ننل طائلًا ولم نقض دينا[1]

ولقد قلت يوم مكة لما ... أرسلت تقرأ السلام علينا

أنعَم الله بالرسول الذي أُر ... سل والمُرسِل الرسالة عَينا

فضحكت ثم قالت: وأنت يا غريض، فأنعم الله بك عينا، وأنعم ابن أبي ربيعة عينا! لقد تلطَّفت حتى أديت رسالته، وأن وفاءك له لمما يزيدنا رغبةً فيك، وثقةً بك.

وقد كان عمر سأل الغريض أن يغنيها هذا الصوت؛ لأنه قد كان ترك ذكرها لما غضبت بنو تميم من ذلك، فلم يحب التصريح بها، وكره إغفال ذكرها، وقال له عمر: إن أبلغتها هذه الأبيات في غناء، فلك خمسة آلاف درهم. فوفى له بذلك وأمرت له عائشة بخمسة آلاف أخرى.

وذكر في الجزء الثالث عشر في أخبار جعفر بن الزبير أن لهذا شعرًا كثيرًا نحل عمر بن أبي ربيعة بعضه ودخل في شعره، وأن كلمته التي مطلعها:

هل في ادكار الحبيب من حرج ... أم هل لهم الفؤاد من فرج

من الناس من يرويها لعمر بن أبي ربيعة ومنهم من يرويها للأحوص، ومنهم من يرويها للعرجي. وكل ذلك يدعونا إلى الاحتياط عند دراسة الأدب القديم.

(١) الحمول: الهوادج، كانت فيها نساء أو لم تكن.

ثم انصرف الغريض من عندها، فلقي عاتكة بنت يزيد بن معاوية امرأة عبد الملك بن مروان، وكانت قد حجت في تلك السنة، فقال لها جواريها: هذا الغريض! فقالت لهنَّ: عليَّ به! فجئن به إليها. قال الغريض: فلما دخلت سلَّمت، فردت عليَّ وسألتني عن الخبر، فقصصته عليها، فقالت: غنني بما غنيتها به، ففعلت، فلم أرها تهش لذلك. فغنيتها معرضًا لها ومذكرًا بنفسي في شعر مُرة بن محكان يخاطب امرأته وقد نزل به أضياف:

أقول والضيف مخشيٌّ ذَمَامتُه ... على الكريم وحق الضيف قد وجبا[1]

يا ربة البيت قومي غير صاغرةٍ ... ضمِّي إليك رحال القوم والقُرُبا[2]

في ليلة من جمادى ذات أندية ... لا يبصر الكلب في ظلمائها الطُّنبا[3]

لا ينبح الكلب فيها غير واحدةٍ ... حتى يلف على خيشومه الذّنبا

فقالت وهي مبتسمة: قد وجب حقك يا غريض، فغنني، فغنيتها:

يا دهر قد أكثرت فجعتنا ... بِسَراتنا ووقَرْت في العظم

وسلبتنا ما لست تُخْلِفُهُ ... يا دهرُ ما أنصفت في الحكم

لو كان لي قِرنٌ أُناضلهُ ... ما طاش عند حفظيةٍ سَهمي

لو كان يعطي النصف قلت لهُ ... أحرزت سهمك فالهُ عن سهمي

فقالت: نعطيك النصف، ولا نضيع سهمك عندنا، ونجزل لك قسمك، وأمرت لي بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من الألطاف، وأتيت

---

(١) الذمامة: العهد. يريد أن عهد الضيف يشعر الرجل بالخشية من التفريط فيه.

(٢) القرب: جمع قراب، وهو الغمد.

(٣) الأندية: جمع ندى، ومن معانيه المطر والبلل –والطنب: حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد.

الحارث بن خالد فأخبرته الخبر، وقصصت عليه القصة، فأمر لي بمثل ما أمرتا لي به جميعًا، فأتيت ابن ربيعة فأعلمته بما جرى، فأمر لي بمثل ذلك، فما انصرف أحد من ذلك الموسم بمثل ما انصرفت به: بنظرة من عائشة، ونظرة من عاتكة، وهما من أجمل نساء عالمهما، وبما أمرتا لي به، وبالمنزلة عند الحارث وابن أبي ربيعة وما أجازاني به جميعًا من المال.

وقدم المدينة قادمٌ من مكة، فدخل على عائشة بنت طلحة فقالت له: من أين أقبل الرجل؟ قال: من مكة. قالت: فما فعل الأعرابي؟ فلم يفهم ما أرادت، فلما عاد إلى مكة دخل على الحارث فقال له: من أين؟ قال: من المدينة. قال: فهل دخلت على عائشة بنت طلحة؟ قال: نعم. قال: فماذا سألتك؟ قال: قالت لي: ما فعل الأعرابي؟ قال الحارث: فعُد إليها ولك هذه الراحلة الحلة ونفقتك لطريقك، وادفع إليها هذه الرقعة، وكتب إليها فيها:

من كان يسأل عنا أين منزلنا ... فالأقحوانة منا منزلٌ قَمِنُ

إذ نلبس العيش صفوًا ما يكدرهُ ... طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

لبت الهوى لم يقربني إليك ولم ... أعرفك إذ كان حظي منك الحزَن

وكان لعائشة بنت طلحة أمة يقال لها بَشْرة كان يذكرها الحارث في شعره يكني بها عن سيدتها، من ذلك قوله:

يا ربع بشرة بالجنان تكلّم ... وأبِنْ لنا خبرًا ولا تستعجمِ

ما لي رأيتك بعد أهلك موحشًا ... خلقًا كحوض الدارة المتهدِّم

تسقى الضجيع إذا النجوم تغوَّرت ... طوع الضجيع أنيقة المُتوسَّم

وقوله:

لبشرة أسرى الطيف والخَبْتُ دونها ... وما بيننا من حَزْن أرض وبيدها

وقـرَّت بهـا عينـي وقـد كنـت قبلهـا ... كثـيرًا بكـائي مـشفقًا مـن صـدودها
وبـثرة خَـودٌ مثـل تمثـال بيعـةٍ ... تظـلُّ النـصارى حولهـا يـوم عيـدها

وقوله:

يـا ربـع بـشرة إن أضرَّ بـك الـبلى ... فلقـد عهـدتك آهـلًا معمـورا
أن يمـس حبلـك بعـد طـول تواصـل ... خلقًـا ويـصبح بيـتكم مهجـورا
فلقـد أراني والجديـد إلى بـلى ... زمنًـا بوصـلك قانعًـا مـسرورا
جَـذِلًا بـما لي عنـدك لا أبتغـي ... للـنفس غـيرك خلـة وعـشيرا
كنـت المنـى وأعـز مـن وطـئ الحـصى ... عنـدي وكنـت بـذاك منـك جـديرا

ولما مات عمر بن عبيد الله عن عائشة بنت طلحة[1]، وكانت قبله عند مصعب بن الزبير قيل للحارث بن خالد: ما يمنعك الآن منها؟ قال: لا يتحدث والله رجال من قريش أن نسيبي بها كان لشيء من الباطل[2].

وما أدري كيف رأى ذلك الشاعر الفحل أن النسيب لا يكون للحق، إلا إذا خلا من مطامح القلب، ومطامع النفس، إن هي إلا كلمة رمى بها ليبرر صدوفه عن تلك الجنة العالية، حين خبا وجده، وتقطَّعت بضلاله الأسباب!

ما كان بينها وبين عمر:

رأى القارئ أن عائشة بنت طلحة كانت رفيقة بابن أبي ربيعة، وأنها أنست بالغريض لوفائه له، وحرصه على تبليغ رسالته، فلنذكر الآن أن عمر رآها لأول مرة في الطواف، وهي تريد الركن تستلمه، فبهت لما رآها، وكانت من أجمل من أظلت

(١) هذه عبارة الأغاني. وعبارة زهر الآداب: فلما قتل عنها مصعب بن الزبير.
(٢) عبارة زهر الآداب: إني لأكره أن يتوهم الناس علي أني كنت معتقدًا لما أقول فيها ج١ ص٢١٩.

سماء الحجاز، فلما علمت أنها وقعت في نفسه، بعثت إليه بجارية لها وقالت له: اتق الله ولا تقل هُجرا، فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت. فقال للجارية: أقرئيها السلام، وقولي لها: إنَّ ابن عمك لا يقول إلا خيرًا. وقال فيها:

لعائشة ابنة التيمي عندي ... حمى في القلب لا يرعى حماها
يذكرني ابنة التيميِّ ظبيٌ ... يرود بروضة سهل رُباها
فقلت له وكاد يراع قلبي ... فلم أر قط كاليوم اشتباها
سوى حَمش بساقك مستبين ... وأن شواك لم يشبه شواها[1]
وأنك عاطل عارٍ وليست ... بعارية ولا عطل يداها
وأنك غير أفرع وهي تُدلى ... على المتنين أسحم قد كساها[2]
ولو قعدت ولم تكلف بودٍّ ... سوى ما قد كلفت به كفاها
أظل إذا أكلمها كأني ... أكلم حيَّةً غلبت رُقاها
تبيست إليَّ بعد النوم تسري ... وقد أمسيت لا أخشى سُراها

وقال فيها أشعارًا كثيرة، فبلغ ذلك فتيان بني تميم، أبلغهم إياه فتى منهم وقال لهم: يا بني تميم بن مرة! ليقذفنَّ بنو مخزوم بناتنا بالعظائم، فمشى ولد أبي بكر، وولد طلحة بن عبيد الله إلى عمر بن أبي ربيعة، فأعلموه بذلك، وأخبروه بما بلغهم. فقال لهم: والله لا أذكرها في شعر أبدًا، ثم أخذ يكني عن اسمها في قصائده، ويتلطف في تبليغها ما يريد على أعواد المغنين وبأصوات الغناء، فمن ذلك قصيدته التي مطلعها:

يا أم طلحة إن البين قد أفِدا ... قل الثواء لئن كان الرحيل غدا[1]
أمسى العراقيُّ لا يدري إذا برزت ... من ذا تطوَّف بالأركان أو سجدا

(١) الحمش: دقة الساقين -والشوى: الأطراف.
(٢) الأفرع: طويل شعر الرأس.

ولم يزل ينسُب بها أيام الحج ويطوف حولها، ويتعرض لها، وهي تكره أن يرى وجهها حتى وافقها وهي ترمي الجمار سافرة، فنظر إليها فقالت: أما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسق! فقال:

إني وأول مـــا كلفـــت بحبهـــا ... عجـبٌ وهـل في الحـب مـن متعجـب
نُعـت النـساء فقلـت لـست بمبـصر ... شـبهًا لهـا أبـدًا ولا بمقـرَّب
فمكـثن حينًـا ثـم قلـن توجهـت ... للحـج موعـدها لِقـاء الأخـشب[٢]
أقبلـت أنظـر مـا زعمـن وقلـن لي ... والقلـب بـين مـصدق ومكـذب
فلقيتهـا تمـشي بهـا بغلاتهـا ... ترمـي الجـمار عـشيةً في موكـب
غـراءَ يُعـشى النـاظرين بياضـها ... حـوراء في غُلـواء عـيش مُعجـب[٣]
إن التـي مـن أرضـها وسـمائها ... جُلبـت لحينـك ليتهـا لم تجلـبِ

(١) أفد: قرب.

(٢) الأخشب مفرد الأخشبين، وهما جبلان يضافان تارة إلى مكة وتارة إلى منى، وهما واحد أحدهما أبو قبيس والآخر قعيقعان. قال مزاحم العقيلي:

خليلي هل من حيلة تعلمانها ... يقرب من ليلى إلينا احتيالها
فإن بأعلى الأخشبين أراكـة ... عدتني عنها الحرب دان ظلالها
وفي فرعها لو يستطاع جنابها ... جنى يجتنيه المجتني لو ينالهـا
ممتعة في بعض أفنانها العـلي ... يروح علينا كل وقت خيالهـا

ويظهر من هذا الشعر أن الأخشبين غير التي بمكة، كما قال ياقوت إذ ترى من منازل العرب التي يحلونها بأهليهم، وليس الأخشبان كذلك. وهما أيضًا موضع واحد إذ لا تنبت إلا رائحته في موضعين.

(٣) غلواء العيش: نضره وأرغده.

وروي أن ابن أبي ربيعة لقي عائشة بنت طلحة بمكة، وهي تسير على بغلة لها، فقال: قفي حتى أسمعك ما قلت فيك. فقالت: أوَقد فعلت يا فاسق؟! قال:نعم! فوقفتْ فأنشدها:

يا ربَّة البغلة الشهباء هل لكم ... أن ترحمي عمرًا لا تُرهقي حَرجا

قالت بدائك مُت أو عش تعالجه ... فما نرى لكم فيما عندنا فرجا

قد كنت حملتنا غيظًا نعالجهُ ... فإن تُقِدنا فقد عنَّيتنا حِججا[1]

حتى لو أستطيع مما قد فعلت بنا ... أكلت لحمك من غيظ وما نضجا

فقلت لا والذي حج الحجيج له ... ما مسَّ حبك في قلبي ولا نهجا[2]

ولا رأى القلب من شيء يُسَرُّ به ... مذ بان منزلكم منا ولا ثلجا

ضنت بنائلها عنه فقد تركت ... في غير ذنب أبا الخطاب مُختلِجا

فلم تزل تداريه وترفق به؛ خوفًا من أن يتعرض لها حتى قضت حجها وانصرفت إلى المدينة، فقال في ذلك:

إن من تهوى مع الفجر ظعنْ ... للهوى والقلب متباعُ الوطن

بانت الشمس وكانت كلما ... ذكرت للقلب عاودتُ الدَّدن[3]

نظرت عيني إليها نظرةً ... مَهبِطَ الحُجاج من بطن يَمَنْ

موهِنًا تمشي بها بغلتها ... في عثانينَ من الحج ثُكَن[1]

قلت قد صدت فماذا عندكم ... أحسنَ الناس لقلبٍ مرتهن

---

(١) تقيدنا: تعاقبنا من القود وهو القصاص.

(٢) مح: بلى.

(٣) الددن: اللهو اللعب، والمراد به هنا تشوق القلب لأحلام الشباب.

ولئن أمست نواها غربةً ... لا تواتيني وليست من وطن[٢]

فلقدمًا قرَّبتني نظرتي ... لعناءٍ آخر الدهر مُعَنّ

ثم قالت: بل لمن أبغضكم ... شِقوة العيش وتكليف الحزن

سوف آتي زائرًا أرضكمُ ... بيقين فأعلميه غير ظنن

فأجابت: هذه أمنيةٌ ... ليت أنَّا نشتريها بثمن

وقال فيها أيضًا هذه القصيدة:

من لقلبٍ أمسى رهينًا مُعنى ... مستكينًا قد شفَّه ما أجنا

إثر شخص نفسي فدت ذاك شخصًا ... نازح الدار بالمدينة عنَّا

أن أراه والله يعلم يومًا ... منتهى رغبتي وما أتمنى

ليت حظي كطرفة العين منها ... وكثيرٌ منها القليل المهنَّا

أو حديثٍ على خلاءٍ يُسلِّي ... ما أجنَّ الضمير منها ومنا

أترى نعمةً نراها علينا ... منك يومًا قبل الممات ومنَّا

خبِّرينا بما كتبت إلينا ... أهو الحق أم تهزَّأتِ منَّا

ما نرى راكبًا يخبِّر عنكم ... أو يريد الحجاز إلا حَزِنَّا

ثم ما نمت بعدكم من منام ... منذُ فارقت أرضكم مطمئنا

ثم ما تُذكَرين للقلب إلا ... زيدَ شوقًا إليكمُ واستُجِنَّا

ويرجح أنه قال فيها القطعة الآتية:

يا أبا الحارث قلبي هائمٌ ... فأتمر أمر رشيد مؤتمن

---

(١) العثانين هنا الزمر والجماعات التي تتقدم الركب؛ تشبيهًا لها بعثانين المطر والريح، والمفرد عثنون. والثكن جمع ثكنة وهي الجماعة، وهي كذلك السرب من الحمام.

(٢) النوى الغربة -بفتح الغين المعجمة- هي البعيدة.

عُلِّـــق القلـــب غـــزالًا شـــادنًا ... يـــا لقـــومٍ لغـــزال قـــد شـــدن[١]

أطلُـــبنْ لي صـــاح وصـــلا عنـــدها ... إن خـــير الوصـــل مـــا لـــيس يمـــنّ

إن حبـــي آل لـــيلي قـــاتلي ... ظهـــر الحـــب بجـــسمي وبطـــن

لـــيس حـــبٌّ فـــوق مـــا أحببتـــه ... غـــير أن أقتـــل نفـــسي أو أُجـــن

جعلـــت للقلـــب منـــي حبهـــا ... شـــجنًا زاد عـــلى كـــل شـــجن

فـــإذا مـــا شـــحطت هـــام بهـــا ... وإذا راعـــت إلى الـــدار ســـكن

ولنلاحظ أن شعر ابن أبي ربيعة في عائشة بنت طلحة لا يُستطاع تعيينه عند الرجوع إلى ديوانه، فقد رأينا أنه أُرغم على السكوت عنها، وأنه اكتفى بالتلميح في أكثر ما أوحت إليه من الشعر البليغ.

وعندما نلاحظ ذلك يصحُّ لدينا أن كثيرًا من الأسماء التي وردت في شعره، لم يكن إلا أداة لستر حبه وصرف الناس عن الكيد لمن يهوى من كرائم الملاح[٢].

(١) الشادن: هو الظبي الذي شدن؛ أي قوي واستغنى عن أمه.

(٢) راجع ما تفرق من أخبار الحارث بن خالد المخزومي، وأخبار عائشة بنت طلحة، وأخبار عمر بن أبي ربيعة في الأغاني، وما ذكر عن هؤلاء في الجزء الأول من زهر الآداب.

obeikandl.com